تجاور الفصحى واللهجات طوال عصر الاستشهاد باللغة

جاء فى القرآن الكريم «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم»، وهذه الآية — مع دلالتها الدينية على عظمة الخالق وخلقه — يفهم منها أمر آخر مؤداه: أن اختلاف الألسنة بين الناس من سنن الحياة وطبيعة المجتمعات البشرية، تماما كاختلاف جلودهم وسحنهم، باختلاف الأجناس والبيئات.

وليس اختلاف الألسنة مرادا به معناه العام فقط، بمعنى: اختلاف لغة كالعربية مثلا عن لغة أخرى كالفارسية، بل يشمل ذلك أيضا الاختلاف الذى يكون فى اللغة الواحدة وبين أفراد اللهجة الواحدة، مما يمكن أن يلاحظه المرء بالأذن المجردة ودون جهد كبير بين أهل قرية وقرية مجاورة مثلا، بل بين أفراد الأسرة الواحدة إذا اختلط كل من أفرادها بمجتمع يخالف المجتمع الذى يخالطه غيره.

وليس من المفيد هنا كثيرا التعرض لما إذا كانت اللهجات العربية هى التى سبقت اللغة الفصحى فى الجاهلية، أو أن الفصحى هى التى سبقت وجود اللهجات، وأن الأخيرة تفرعت عنها فى وقت متأخر، فإن غموض المعلومات ونقص الأدلة فيما يتعلق بنشأة اللغات عموما، واللغة العربية خصوصا، سيؤدى إلى كثير من الفروض والحدس واصطراع الآراء دون الوصول من ذلك إلى نتائج مقنعة.

لكن الذى ينبغى معرفته أن اللغة العربية فى كل عصورها المعروفة اختلفت ألسنة العرب فى نطق لهجاتها تبعاً لاختلاف القبائل وظروفها